قضايا وآراء

أخبار الخليج

العدد (17586) - السنة الحادية والخمسون - الأحد 30 ذو القعدة 1447هـ - 17 مايو 2026م

حقائق تكشف مأزق من خانوا الولاء للوطن

بقلم:
د. زكريا الخنجي

تُعدّ الخيانة وخاصةً في المجال العام -الولاء للدولة والوطن- ظاهرةً ذات طابع مركّب، لا يكفي لتفسيرها الاقتصار على المعالجة القانونية أو التوصيف السياسي؛ لأنها تنطوي على انتقال نوعيّ في منظومة الولاء، وتبدّل في آليات التبرير الداخلي، وخرق لبنية الثقة التي تقوم عليها العلاقات الاجتماعية والمؤسسية.

وتقدم الكتابات الفلسفية المعاصرة وعلم النفس السياسي والتحليل النفسي الاجتماعي أدوات لفهم كيف تتشكل دوافع الخيانة، وكيف تتحول الأزمات الذاتية أو الضغوط الموضوعية إلى قرار يبدو ظاهريًا عقلانيًا، بينما هو في عمقه حصيلة شبكة من الانفعالات والاضطرابات السلوكية وما إلى ذلك، وتدل بعض المساهمات النفسية التحليلية في موضوع الخيانة إلى أن الفعل الخياني قد يرتبط بمسارات من الاختلالات في بنية الضمير وتكوين الأنا الأعلى، لا بمجرد سوء نية مجرد.

غير أنّ تناول الخيانة العظمى بوصفها فعلاً قانونيًا أو سياسيًا فحسب لا يكشف إلا جانبًا محدودًا من حقيقتها؛ إذ تشير الأدبيات الحديثة في علم النفس السياسي إلى أنّ هذا السلوك لا يمكن فهمه بمعزل عن البنية النفسية للفرد، وتاريخه الشخصي، وظروفه الاجتماعية والسياسية؛ فالخيانة ليست دائمًا نتاجًا لحسابات عقلانية بحتة، بل غالبًا ما ترتبط بحالات من الأزمات الشخصية والنفسية المتراكمة التي تدفع الفرد إلى إعادة توجيه ولائه بشكل جذري. وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن (لا أحد يقدم على الخيانة وهو في حالة رضا نفسي)، في إشارة إلى الدور الحاسم للاضطرابات الوجدانية أو الأزمات الذاتية في اتخاذ مثل هذا القرار المصيري.

ومن منظور تحليليّ أعمق، يمكن اعتبار الخيانة انعكاسًا لتفاعلات معقدة بين الدوافع الذاتية والظروف الموضوعية؛ فالعوامل النفسية، مثل الشعور بالنقص أو فقدان الهوية الذاتية، قد تتداخل مع عوامل خارجية كالصراع السياسي، أو الاستقطاب الأيديولوجي، لتشكّل بيئة خصبة لانحراف الولاء الوطني. وفي هذا السياق، يغدو الفعل الخياني تعبيرًا عن أزمة داخلية بقدر ما هو موقف خارجي، حيث يتحول الوطن -في وعي الفاعل- من موضوع للانتماء إلى موضوع للصراع أو الرفض.

أما البعد الإسلامي، فيضيف طبقةً تفسيريةً معيارية وأخلاقية عميقة؛ إذ يربط بين الخيانة بوصفها نقضًا للأمانة والإيمان والسلوك الاجتماعي، ويجعل الوفاء بالعهد وحفظ الأمانات ركنًا من أركان استقامة الفرد والجماعة، ويصوغ مبدأ سياسيًا وأخلاقيًا بالغ الدلالة؛ وهي رفض الغدر حتى مع الخصوم، واشتراط الشفافية المتكافئة عند إنهاء العهود. يقول تعالى في سورة الأنفال الآية 27 «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

دوافع الفرد وآليات التبرير

أولاً: فرضية الأزمة الداخلية، الاخفاق والتصدّع الوجداني: تشير مقاربات سيكولوجية إلى أن قرار (الانقلاب على الولاء) كثيرًا ما يأتي داخليًا بعد تراكم الأزمات الشخصية أو الشعور بالاختلال والتأزم؛ وفي سياق الانشقاق أو الانقلاب أو التخابر، يرد تصريح لافت في أدبيات سيكولوجية الانشقاق مفاده أن (لا أحد يُقدم على الانشقاق لأنه في حالة انسجام وتوافق داخليًا)، بما يعني أن حالة الانهيار النفسي قد تكون شرطًا سابقًا يدفع الفرد إلى تغيير بوصلته.

ثانيًا: فرضية نقص تقدير الذات وتعويض النقص: تُظهر بعض الكتابات النفسية حول الخيانة (بمفهومها العام كخرق للثقة) أن جذورها قد ترتبط بانعدام الرضا الداخلي، والسعي لتعويض النقص أو تثبيت صورة الذات عبر سلوك يضمن مكسبًا سريعًا أو اعترافًا خارجيًا.

وعند إسقاط ذلك على الخيانة السياسية أو الوطنية، يمكن أن تتحول الحاجة للتعويض إلى تبرير أيديولوجي يخفي دافعًا نفسيًا أعمق كقوله: أنا غير مرتاح، وما إلى ذلك من عبارات لمجرد التبرير حتى إن كانت العبارات غير مبررة في الأصل، فيُعاد تعريف الوطن بعيدا عن جوهر الانتماء.

ثالثًا: فرضية النفعية، المصلحة الذاتية كقيمة عليا: يظهر في تحليل الخيانة أن بعض الأفراد يتصرفون وفق عقلانية أداتية، بمعنى الغاية -وهي هنا البحث عن المال أو المنصب أو الوقوع فريسة لبعض الوعود الكاذبة أو أي شيء آخر- يبرر الوسيلة؛ وهي هنا نقض الولاء. وتؤكد بعض المقاربات أن الخيانة قد تصبح عملية واعية أو غير واعية لتحقيق الإشباع الذاتي والمكاسب متجاوزة الاعتبارات الأخلاقية.

رابعًا: المقاربة التحليلية النفسية، خلل الأنا الأعلى والهوية الأخلاقية: تذهب مقاربات تحليلية إلى أن الخيانة تتصل بخلل في الضمير (الأنا الأعلى) وبحاجات مرضية للامتلاك والقوة، واضطراب في الهوية، بما يجعل الخيانة ليست مجرد خيار براجماتي بل مظهرًا لبنية نفسية مأزومة.

وأخيرًا، نجد أن مسرحية (رأس المملوك جابر) تعد نموذجًا دراميًا معبّرًا عن سيكولوجية الخيانة في سياقها السياسي والاجتماعي، حيث تكشف أنّ الفعل الخياني لا يصدر عن دافع أخلاقي منحرف فحسب، بل يتشكل من تفاعل معقد بين الاضطراب النفسي والطموح الفردي، فشخصية (جابر) تجسد الخيانة بوصفها وهمًا للخلاص، بينما يعكس سلوك الوزير الخيانة البنيوية المرتبطة بالسلطة. وفي ضوء المنظور الإسلامي، تتجلى الخيانة في المسرحية بوصفها نقضًا للأمانة يؤدي إلى دمار الفرد والمجتمع معًا.

وعند البحث في صفحات التاريخ نجد أن هناك قاعدة مطلقة مفادها أن الغزاة يقتلون جميع المتعاونين معهم؛ أقصد الخونة لأوطانهم، فالتجارب التاريخية تكشف نمطًا متكررًا يتمثل في هشاشة موقع الخائن داخل بنية المستعمر؛ إذ غالبًا ما يُستعمل كأداة ظرفية ثم يُستغنى عنه ويُقصى ومن ثم يشنق.

Zkhunji@hotmail.com

عاند الجرح يبرى يا البحرين.. ما يطول الألم على قلب صبور

بقلم:
يعقوب سامي القوز ○

يا بحرين، يا لؤلؤةً تعرف كيف تولد من ضغط الأعماق، لا تحزني على مَن مرّوا تحت ظلك ثم باعوا ظلّهم لأول عتمة عابرة. لا تحزني على أغصان شربتْ من مائك، فلما جاء وقت الثمر مالتْ إلى ريحٍ لا تعرف اسم النخلة ولا حرمة الجذور.

فليست كل يدٍ تلوّح للراية تعرف وزنها، وليستْ كل حنجرةٍ تحفظ النشيد تحمل الوطن في صدرها. بعض الأصوات عاليةٌ كالموج، لكنها بلا عمق؛ وبعض الصمت أوفى من ألف قسم، لأنه إذا دُعي إلى الموقف صار صخرةً في وجه المدّ.

يا وطن، الولاء لا يسكن اللسان طويلًا إن لم يجد له بيتًا في الفعل. لا يكفي أن يقول المرء أنا منك، ثم إذا اختبرتْه الريح فتح نافذته للغبار. ولا يكفي أن يقف في الصف حين تكون الشمس رحيمة، ثم يتسلل عند العاصفة إلى مصباح غريب. فالانتماء ليس ثوبًا للمناسبات، بل جلدا لا يخلعه صاحبه حين يقترب الخطر.

كم من وجهٍ عرفته أبوابك، وكم من اسمٍ مرّ على دفاتر عطفك، وكم من يدٍ أطعمتها خبز الأمان، ثم عادت تحمل في أصابعها رماد الطريق.

لكن الوطن الذي يمنح لا يندم على كرمه؛ لأن الكرم من طبعه، أما الغدر فليس إلا شهادةً على صاحبه. البحر لا يعتذر لأنه حمل سفينةً خائنة؛ السفينة هي التي تفضح وجهتها حين تختار الميناء الخطأ.

لا تحزني يا البحرين.

فالطعنات التي تأتي من الخلف لا تعني أن الظهر ضعيف، بل إن الطاعن لم يملك شجاعة المواجهة. والذي يخبئ خنجره في ثوب القربى لا يصبح قريبًا؛ إنما يثبت أن الثوب قد يستر الجسد، لكنه لا يستر المعدن.

بعضهم ظنّ أن الحضن غفلة، وأن الصبر عجز، وأن سعة القلب بابٌ بلا حارس. وما علموا أن للأوطان بصيرةً أقدم من عيونهم، وأن الرمال التي تبدو ساكنة تحفظ أثر الخطوة، وأن البحر الذي يصمت طويلًا يعرف جيدًا من جاءه راجعًا، ومن جاءه متسللًا بلا ضوء.

يا بحرين، لا يكسرك أن تنكشف الوجوه؛ فالزيف حين يظهر يُخفف حمله عن الذاكرة، والخيانة حين تخرج من الظل تفقد نصف سمّها. الجرح الذي يدلّك على موضع الخطر ليس لعنةً كاملة؛ أحيانًا يكون الجرح عينًا ثالثة، ترى ما كانت العافية تخفيه.

عاند الجرح يبرى يا بحرين.

فالألم لا يطول على قلب صبور، ولا يستوطن صدرًا يعرف كيف يحوّل الوجع إلى حصن، والخذلان إلى يقظة، والندبة إلى خريطة. وما كل ندبة نقص؛ بعض الندوب أوسمةٌ صامتة تقول إن الجسد تعرّض للغدر، لكنه لم يسقط.

أما الذين مدّوا آذانهم إلى ما وراء الماء، وتركوا نداء البيت، فسيعرفون متأخرين أن الغريب لا يحتضن من خان أهله؛ بل يستعمله كما تُستعمل الورقة اليابسة لإشعال نار لا تدفئ أحدًا. ومن يبيع طريقه لا يملك الوصول، ومَن يفرّ من جذره لا يصبح شجرةً في أرضٍ أخرى.

ستبقين يا بحرين أوسع من الخنجر، وأعلى من اليد التي حاولت أن تخفض الراية، وأصلب من العاصفة التي ظنت أن الرمل بلا ذاكرة. فالذين يطعنون الظهر لا يبلغون القلب، والذين يبيعون الطريق لا يملكون النهاية.

أما أنت، فستبقين جرحًا يبرأ، ورايةً لا تنحني، وصباحًا لا يستأذن الخائفين.

○ باحث دكتوراة في الإعلام والعلاقات الدولية.

في ذكرى النكبة.. قراءة في واقع القضية الفلسطينية اليوم

بقلم:
تيسير خالد ○

النكبة التي تعرض لها الشعب الفلسطيني عام 1948 لا تغيب عن المشهد السياسي على امتداد الأيام والسنوات ولا تقف حدودها عند أحداث جرت في ذلك العام وأتى عليها قانون التقادم. في ذلك العام ارتكبت التشكيلات العسكرية (الهاجاناه، شتيرن وليحي) التي أقامتها الوكالة اليهودية والحركة الصهيونية عديد المجازر (70 مجزرة وعملية قتل جماعي) وهدمت عديد البلدات والقرى الفلسطينية (531 بلدة وقرية) وشردت مئات آلاف الفلسطينيين من وطن عاشوا فيه آلاف السنين (750 ألف فلسطيني).

تلك المجازر وعمليات الهدم والتشريد والتهجير لم تكن بنت اللحظة في خضم أحداث الحرب، بل هي جرت في سياق خطة كانت الوكالة اليهودية وجهازها العسكري الرسمي (الهاجاناه) قد أعدتها سلفا وباشرت تنفيذها قبل ان تبدأ قوات الانتداب البريطاني انسحابها من فلسطين، فيما عرف بخطة (دالت). وُضعت الصيغة النهائية للخطة وتمت الموافقة عليها في أوائل مارس 1948، وتم تعميمها على قادة الألوية في الهاغاناه في العاشر من الشهر نفسه 1948. أما التنفيذ فقد بدأته «الهاغاناه» في أوائل شهر ابريل، وشملت العمليات سلسلة من الهجمات لاحتلال المدن والقرى العربية، وتهجير الفلسطينيين.

في حينه كانت الوكالة اليهودية قد استكملت بناء مكونات دولتها السياسية والعسكرية والاقتصادية والتعليمية والاجتماعية برعاية كاملة من سلطات الانتداب البريطاني، وتوافرت لديها قيادة سياسية وعسكرية ميدانية فعالة على الأرض، وتمكنت من الحصول على صفقات أسلحة نوعية أعطتها مزايا متفوقة في القتال، كحصولها على 24 طائرة حربية بريطانية، وعلى كمية ضخمة من الأسلحة التشيكية بينها 40 طائرة مقاتلة، وعلى ثلاث طائرات قاذفة أمريكية.

ما الذي انطوت عليه تلك الخطة: كانت الخطة، التي يعود الفضل في الكشف عنها الى البروفيسور وليد الخالدي، الذي رحل عن عالمنا في الثامن من مارس الماضي، تقوم على مبدأ التطهير العرقي والإبادة كهدف مركزي من أهدافها، بتوجيهات صارمة وتفصيلية، تدعو من دون رحمة إلى القتل ودب الرعب ومحاصرة المدن والقرى الفلسطينية وحرق البيوت والممتلكات وزرع الألغام وسط الأنقاض لمنع الأهالي من العودة الى بيوتهم، وحددت المدن والبلدات الفلسطينية المستهدفة، وقدمت تعليمات حول كيفية طرد سكانها وتدمير مجتمعاتها. دعت الخطة إلى تدمير القرى (حرقها وتفجيرها وزرع الألغام في أنقاضها)، ولا سيما المراكز السكانية التي يصعب السيطرة عليها باستمرار وشن عمليات بحث وتفتيش وفقًا للتوجيهات الآتية: تطويق القرية وتفتيشها من الداخل. وفي حال المقاومة، يجب القضاء عليها وطرد السكان خارج حدود الدولة.

كان البروفيسور وليد الخالدي بارا بفلسطين وأهلها في كشفه عن الجريمة. أما الشاعر الفلسطيني الكبير محمود درويش فاستحضر الجريمة بقوله: سرقت دموعنا يا ئذب. بهذه الكلمات المعبرة لخص سياسة دولة اسرائيل منذ اللحظات الاولى لقيامها وما ترتب على ذلك من نكبة حلت بالشعب الفلسطيني ولا تزال فصولها تتوالى منذ عام 1948. دولة قامت على الارهاب وعلى جرائم التهجير والتطهير العرقي وطرد شعب من ارض آبائه وأجداده على أيدي كيان متوحش ملأ الدنيا ضجيجا منذ بداياته ضد ما يسميه الإرهاب، واستنكر على الضحية أن تتمرد على شروط قتلها.

وعندما كشفت إسرائيل في ثمانينيات القرن الماضي عن بعض الوثائق من أرشيف الدولة، وأرشيف الوكالة اليهودية ومنظماتها في فلسطين الانتدابية قبيل النكبة الفلسطينية وأثناءها وفي السنوات التالية لتأسيسها، بدأت الحقائق تتكشف. وكانت تلك فرصة ثمينة لعدد ممن أصبحوا يعرفون بالمؤرخين الجدد في اسرائيل أمثال بيني موريس وآفي شلايم، وإيلان بابيه وشلومو زاند وغيرهم؛ للبحث في نكبة الشعب الفلسطيني وما رافقها من مجازر شكلت القاعدة الأساس لسياسة الترحيل والتهجير والتطهير العرقي، التي رافقت نكبة الشعب الفلسطيني عام 1948. كان دخول المؤرخين الجدد في إسرائيل على الخط فاتحة توجّه لدى بعض الإسرائيليين، الذين أخذوا يشككون في الرواية الصهيونية. وقدمت هذه العملية المحدودة العون كذلك لنشاط جمعيات أهلية إسرائيلية كجمعية «زوخروت» اليهودية المختصة بالرواية التاريخية الفلسطينية وأطلقت من دون شك بواكير عمل تأريخي جديد، في مواجهة التيار الإسرائيلي المركزي، الذي كان ومازال يرفض الرواية الفلسطينية عن النكبة. جن جنون قادة دولة اسرائيل والحركة الصهيونية وعادت عملية التعتيم والتكتم على أرشيف الدولة وأرشيف الحركة الصهيونية والوكالة اليهودية بعد أن تم توجيه التهمة للمؤرخين الجدد بأنهم نبحوا البقرة المقدسة.

وفي هذا الشأن لا بد من الاعتراف أننا تأخرنا كثيرا، بل قصرنا في تقديم روايتنا عن النكبة كما جرت للعالم، باعتبارها الفيصل بين الحقائق والأكاذيب والدليل القاطع على ما خططت له الصهيونية من جرائم تم ارتكابها، الأمر الذي سمح فترة غير قصيرة لرواج الرواية الإسرائيلية، التي ادعت أن سكان فلسطين غادروا قراهم وبلداتهم ومنازلهم استجابة لنداءات من الخارج. وقد تأخر العالم في سماع روايتنا بقدر ما تأخرنا نحن في طرحها.

وقد تغير الوضع في السنوات الأخيرة وخاصة بعد جرائم الحرب المروعة وجرائم الابادة الجماعية، التي ارتكبها جيش الاحتلال في قطاع غزة بعد الثامن من اكتوبر الماضي 2023. وفي جرائم الإبادة هذه جاء من يحمل روايتنا إلى العالم بشرارة أطلقتها جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة وامتدت لتغطي مئات الجامعات في هذا العالم، وبخطوة جريئة من جمهورية جنوب افريقيا جلبت دولة اسرائيل إلى قفص الاتهام في محكمة العدل الدولية، وهي رواية حطمت عددا من «أصنام العبادة» وقدمت اسرائيل كما هي، دولة تعيش على الحروب والجرائم في المنطقة ولكنها ليست دولة من دول المنطقة، فهي دولة وظيفية فحسب.

لقد تغير الوضع فعلا، وبدأ عديد قادة العالم تحت ضغط الرأي العام وخاصة في الدول الغربية، بما فيها الولايات المتحدة الأمريكية، يتحدث من دون حسابات مسبقة عن النكبة وجرائم الحرب، التي ترتكبها اسرائيل ضد الشعب الفلسطيني.

الآن ونحن ندخل عاما جديدا من أعوام النكبة الفلسطينية نلاحظ التحول في موقف الرأي العام العالمي. ومن أبرز المؤشرات على ذلك القرار الأممي مطلع ديسمبر عام 2022 بتحديد الخامس عشر من مايو يوما تحيي فيه الجمعية العامة للأمم المتحدة على مستوى رفيع مرور ذكرى نكبة فلسطين. هذا التحول كان نتيجة طبيعية لصمود أهلنا في مناطق الـ48 في وجه العدوان ومحاولة الأسرلة وثباتهم في أرضهم كأقلية قومية حافظت على قضيتها وعلى وجودها في ارضها، وثانيا بفعل الاشتباك المتواصل بين أبناء الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة بعدوان يونيو 1967 وما يصاحبه من جرائم حرب اسرائيلية وسياسة تمييز وفصل عنصري تغذيها سياسة الاحتلال والاستيطان الإسرائيلية، وبفعل استعادة مخيمات اللجوء والشتات في دول الجوار لدورها كرافعة كفاحية من أجل استرداد الحقوق تحت راية منظمة التحرير الفلسطينية، ما ساعد في الحفاظ على قضية اللاجئين حية وعلى حق اللاجئين في العودة، هذا الحق الذي لا يموت بالتقادم رغم كل الاجراءات التي تتخذها كل من الولايات المتحدة الامريكية ودولة اسرائيل ضد وكالة غوث وتشغيل الفلسطينيين (أونروا).

وتبقى هنا مهمة الحفاظ على وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين وتمكينها من القيام بدورها وتقديم خدماتها في مختلف المجالات الصحية والتربوية والاجتماعية والإنسانية وكشاهد على حق وطني وفردي وجماعي، مهمة وطنية يجب التمسك بها كموقف وطني ثابت في مواجهة محاولات تصفية أعدل قضية في تاريخ البشرية.

○ عضو المكتب السياسي للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين.

مغزى الاحتفالات العالمية بالذكرى المئوية التاسعة للفيلسوف العربي ابن رشد

بقلم:
د. عصام عبدالفتاح ○

تشهد الأوساط الفكرية والفلسفية هذا العام 2026 احتفاء كبيرا بالذكرى المئوية التاسعة لمولد فيلسوف قرطبة الكبير ابن رشد (1198–1126م). وهو من أبرز فلاسفة العقل والتنوير. فخلال شهر أبريل الماضي نظم «البيت العربي» -وهو مؤسسة عمومية إسبانية مقرها في مدريد تعمل كنقطة التقاء بين إسبانيا والعالم العربي- مؤتمرات وندوات فلسفية لمناقشة إرث ابن رشد الفلسفي وأثره في ظهور الرشدية اللاتينية ودوره الكبير في نقل أوروبا إلى عصر النهضة.

كما نظمت تونس في معرض الكتاب الدولي لعام 2026 فعالية ثقافية للاحتفاء بابن رشد تحت عنوان «رهانات ابن رشد» وتم إنتاج فيلم وثائقي عن ابن رشد بعنوان «الشارح» ليوثق حياة ابن رشد وظروف نفيه إلى إليسانة ووفاته.

والجدير بالذكر أنه في نهاية عام 2025 احتفت مصر بمئوية الفيلسوف الراحل مراد وهبة، الذى وُصف بـ«ابن رشد العصر الحديث» بفضل مشروعه التنويري الذى ناضل فيه من أجل استدعاء الفكر الرشدي العقلاني إلى العالم العربي بوصفه حلا لا مناص منه للانسلاخ من التراجع الحضاري البائد منذ القرن الـ13 الميلادي، وهو الحل الذى تبنته أوروبا في التوقيت نفسه عندما استجاب الملك فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا أثناء صراعه مع الكنيسة لنصائح مستشاريه له بترجمة أعمال ابن رشد لكى يتخلص من النظام الإقطاعي المدعوم من الكنيسة وتشجيع طبقة التجار.

ولكن لماذا ابن رشد؟ وما أهمية أعماله في تغيير الواقع الأوروبي؟ كان مستشارو الملك الألماني يرون في مؤلفاته فكرا رصينا يسمح بالتطوير والتغيير المأمول، وهو ما حدا بالملك إلى أن يأمر بترجمة مؤلفات ابن رشد إلى درجة أننا نعثر فيها على ترجمات بالعبرية أو اللاتينية من دون أن نجد أثرا للأصل العربي الذي أبادته نيران السلطان في المشرق العربي مثلما كان مصير مؤلفه الفيلسوف ابن رشد ذاته نفيا خارج البلاد.

لا شك أن الإرث الفلسفي الذي تجسده شخصية ابن رشد لعب دورا محوريا ليس فقط في نقل الفلسفات الإغريقية إلى أوروبا، وخاصة شروحه الفلسفية الدقيقة لأعمال أرسطو، وإنما أيضا في استيعاب أوروبا الكامل لها إلى درجة أن ثمة رموزا فلسفية رفيعة تذهب إلى أن ابن رشد لا ينبغي النظر إليه اليوم في أوروبا بوصفه ذلك «الآخر المختلف عنا» وإنما باعتباره جزءا لا يتجزأ من أوروبا وحضارتها.

ولا عجب أن نشاهد في أوروبا اهتماما لا ينقطع بالنصوص الرشدية يعبر عن نفسه في خروج دراسات جديدة كل الجدة تعيد قراءتها وتجتهد في تفكيكها لاكتناه مضامينها الفلسفية العميقة، وثمة دراسات أخرى تتصدى للانتقادات والتفسيرات الخاطئة التي نسبها إلى فلسفة ابن رشد اللاهوتي المعروف بعدائه الشديد له توما الأكويني وتلامذته من اللاهوتيين في العصر الوسيط.

فقد أعدت دراسة معمقة جديدة للفيلسوف الفرنسي جان باتيست برونيه Jean-Batiste Brenet -وهو من أبرز المتخصصين الشبان في الفلسفتين العربية واللاتينية في العصر الوسيط بجامعة السوربون- عنوانها l'inquietant Averroes؛ أي «ابن رشد المقلق»، لتكشف النقاب عن الأخطاء الفادحة التي وقع فيها لاهوتيو العصور الوسطى في قراءتهم لنصوص ابن رشد التي ظلت تتكرر في التاريخ الأوروبي حتى القرن التاسع عشر إلى درجة أنها أدت إلى تزييف كبير في معانيها ومقاصدها الفلسفية، وهو ما شكل في نظر «برونيه» «فضيحة كبيرة» لأعداء فيلسوف قرطبة في أوروبا.

بيد أن السؤال هو: ما هي الانتقادات الفلسفية التي وجهها اللاهوتيون الأوروبيون على رأسهم بالقطع توما الاكويني إلى ابن رشد وما سبب قلقهم منه؟

إن ما أقلقهم من ابن رشد يرجع إلى ما أشاعه الأكويني عنه بأنه أخطأ في قراءته لأرسطو عندما ادعى «أن عقل الإنسان قوة مفارقة للأفراد وأنه واحد لكل الجنس البشرى وأنه لم يخلق ولكنه أزلي»، وهو ما حدا بالأكويني إلى استنتاج خاطئ مؤداه أن الفرد البشري لم يعد يملك عقلا شخصيا وأنه غير قادر على التفكير والتصرف ولا يمكن أن يكون مسؤولا عن أي شيء وكأنه حيوان بلا عقل وهو ما يعد كفرا بالدين.

لكن منطق الفكر الرشدي كان دائما أقوى من نوايا أعدائه؛ فرغم مزاعمهم ومقاومتهم له لعب ابن رشد دورا جوهريا في إخراج أوروبا من العصور الوسطى إلى النهضة. وصدق من قال إن امتناع المشرق العربي عن تلقي الفكر الرشدي وتمسكه الشديد بالفكر الأصولي يتماشى تماما مع مبدأ أسسه ابن رشد في مؤلفاته حول الطبيعيات والعقليات، وهو مبدأ «التواصل بين المحرك والمتحرك»، ومؤداه ضرورة أن يكون هناك تماثل في الطبيعة بينهما.

تُرى كيف يمكن أن يتحقق مثل هذا التماثل الرشدي بين فكر تنويري محرك بطبيعته نحو التغيير وذهنية أصولية عصية بطبيعتها على التغير؟

○ أستاذ فلسفة اللغة والأدب الفرنسي بكلية الآداب – جامعة حلوان.